مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 10/ العدد: 01- جانفي (2024)

تاريخ الاستلام: 2023/09/07 تاريخ القبول: 2024/01/16 تاريخ النشر: 2024/01/21

اللغة والإيقاع في أدب جبران خليل جبران

✍قليل يوسف[1]
youcef.kliel@gmail.com
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة/الجزائر

✍حقوق فاطمة [2]
fathaggoug@gmail.com
جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس/الجزائر

Gibran Khalil Gibran and his vision of beauty and religion

✍ KLIEL Youcef[1]
y.kliel@univ-skikda.dz
August'20 1955 University skikda/Algeria

✍ HAGGOUG Fatima[2]
fathaggoug@gmail.com
Djillali Liabes University SBA/Algeria

[1] المؤلف المرسل: قليل يوسف

ملخص البحث

يتميز أدب جبران خليل جبران بخصائص فريدة خاصة على مستوى اللغة، فعندما نقرأ نتاجه الأدبي نحس أن لغته تجتثنا من الواقع المادي إلى عالم مثالي علوي بألفاظ بسيطة تؤثر فينا وتلامس أرواحنا وأعماقنا وكأن بها سحر، هذه الميزة التي يحس بها قارئ أدبه جعلتنا ندرس تلك اللغة علّنا نكتشف بعض أسرارها، ومن خلال ذلك وقفنا على حجم التجديد الذي أضافه للغة العربية من حيث تركيب الألفاظ وتنويع دلالاتها وأيضا على مستوى الإيقاع، فالإيقاع عنده لا ينحصر في وزن وسجع بل هو أكبر من ذلك، هو في اللفظة وفي الجملة وطريقة سبكها، هو تعبير عن تجربة وجدانية.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الألفاظ، التعابير، الإيقاع، الجمل.

ABSTRACT:

Gibran Khalil Gibran's literature is characterized by unique characteristics, especially at the level of language. When we read his literary productions, we feel that his language uproots us from material reality to an ideal, transcendent world with simple words that affect us and touch our souls and depths, as if they contain magic. This feature that the reader of his literature feels has made us study that language openly. We discover some of its secrets, and through that we noticed the amount of innovation that he added to the Arabic language in terms of the composition of words and the diversification of their connotations, and also at the level of rhythm. For him, rhythm is not limited to meter and assonance, but rather it is greater than that. It is in the word, in the sentence, and in the way it is coined. It is an expression. About an emotional experience.

Keywords: Language, words, expressions, rhythm, sentences.

مقدمة:

جبران خليل جبران هو أحد رواد الأدب المهجري، تجاوزت شهرته حدود الزمان والمكان، وصار ذكره رمزا للأديب المكافح المناضل وللنفس الطيبة المحبة،وفد اعتز بجذوره الشرقية المفعمة بالروحانية وبقي محافظا عليها يستلهمها في أدبه بين الفينة والأخرى، فطفح أدبه بروح حية جعلت العالم الغربي الغارق في المادة يلتفت إليه ويحتفي به احتفاء كبيرا، أما العالم العربي فرأى فيه أسلوبا جديدا،ففيم تمثل هذا التجديد ؟وما سببه؟وماذا نتج عنه؟

لم تعد القوالب الأدبية القديمة تروق لجبران، كما لم تعد قادرة على الإفصاح عما يجول في خاطره ولملمته بشكل معين، فثار على الطرق القديمة التي رضيت بالجمود والتحجر، وراح يبحث عن قوالب تعبيرية جديدة تتلائم مع طاقاته وقدراته الإبداعية الفائقة، وتضمن له التعبير الحر المنفلت من كل قيد نحوي أو صرفي أو عروضي، فتطلق الأقلام على سجيتها، وتحقق التلاحم بين الشكل والمضمون.

وبذلك تحرر جبران من كل القيود التعبيرية التي كانت تقف عائقا أمامه وتحد من قدراته، وأنشأ أسلوبا خاصا به بهر العالم العربي بألفاظه العذبة وتعابيره البسيطة وخيالاته الجميلة المبتكرة، وبيانه الصافي المترقرق، وتنوعه المتلائم مع كل غرض أدبي يكتب فيه.

فاتسم أدبه عامة وأدبه ذو الميول الصوفية خاصة بسمات فريدة على مستوى اللغة والإيقاع. فما هي هذه السمات والمميزات التي طبعت أسلوبه ؟

1.اللغة:

يقول جبران في مقال (مستقبل اللغة العربية): "إنما اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الأمة، أو ذاتها العامة فإذا هجعت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها، وفي الوقوف التقهقر وفي التقهقر الموت والاندثار"[1]، فاللغة هي التي ترسم آفاق المستقبل، وذلك متوقف على قوة الابتكار، فإذا أبدع الشاعر تطورت وازدهرت ورسمت لنفسها مستقبلا زاهرا، وإذا جمد خياله وأسِن عاشت في أصدائها البالية فتتقهقر وتندثر، لذا كثيرا ما رأينا جبران يلح إلحاحا شديدا على ضرورة ابتكار صور وتعابير لغوية لم تر النور بعد، تعابير تنبع من ذاتية الشاعر إذ هو "أبو اللغة وأمها تسير حيثما يسير وتربض أينما يربض... فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس إلى عالم البحث، وما يقرره عالم الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين... أعني بالشاعر كل مخترع صغيرا كان أو كبيرا... أعني بالشاعر ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلا عن المحراث الذي ورثه عن أبيه فيجيء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد، وذلك البستاني الذي يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقالية اللون فيأتي بعده من يدعو الزهرة الجديدة باسم جديد"[2].

تتطلب اللغة من الشاعر أن يحوك لها أثوابا جديدة تليق بوضعها وفكرها الجديد، لذلك نظر جبران إليها نظرة حرّة، فهي بالنسبة له آية المستقبل كائنة فيه ومتجسدة في مظاهره، فخرج عن اللغة المتحجرة وانفصل عنها، وجعل لنفسه لغة خاصة به رسم ملامحها في مقال (لكم لغتكم ولي لغتي) والذي جاء فيه: "لكم من اللغة العربية ما شئتم، ولي منها ما يوافق أفكاري وعواطفي، لكم منها الألفاظ وترتيبها، ولي منها ما تومئ إليه الألفاظ ولا تلمسه، ويصبو إليه الترتيب ولا يبلغه.

لكم منها جثث محنطة بإرادة جامدة، تحسبونها الكل بالكل، ولي منها أجساد لا قيمة لها بذاتها، بل كل قيمتها بالروح التي تحل فيها. لكم منها قواعدها الحاتمة وقوانينها اليابسة المحدودة ولي منها نغمة أحوّل رناتها ونبراتها وقراراتها إلى ما تثبته رنّة في الفكر، ونبرة في الميل، وقرار في الحاسة.

لكم منها القواميس والمعجمات والمطولات، ولي ما غربلته الأذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مأنوس تتداوله ألسنة الناس في أفراحهم وأحزانهم. لكم منها العروض والتفاعيل والقوافي، وما يحشر فيها من جائز وغير جائز، ولي منها جدول يتسارع مترنما نحو الشاطئ فلا يدري ما إذا كان الوزن في الصخور التي تقف في سبيله، أم القافية في أوراق الخريف التي تسير معه.

... لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق، ولي من لغتي نظرة في عين المغلوب، ودمعة في جفن المشتاق، وابتسامة على ثغر المؤمن، وإشارة في يد السموح الحكيم. لكم منها ما قاله سيبويه والأسود وابن عقيل ومن جاء قبلهم وبعدهم من المضجرين المملين، ولي منها ما تقوله الأم لطفلها، والمحب لرفيقته، والمتعبد لسكينة ليله.. لكم منها ماضيها وما كان في ماضيها من الأمجاد والمفاخر، ولي منها حاضرها ومستقبلها بما في حاضرها من التأهب وما سيكون في مستقبلها من الحرية والاستقلال... ولكم أن تلتقطوا ما يتناثر خرقا من أثواب لغتكم، ولي أن أمزق بيدي كل عتيق بال، وأطرح على جانب الطريق كل ما يعيق مسيري نحو قمة الجبل... لكم لغتكم عجوزا مقعدة، ولي لغتي غارقة في بحر من أحلام شبابها. وما عسى أن تصير إليه لغتكم وما أودعتموه لغتكم عندما يرفع الستار عن عجوزكم وصبيتي؟

أقول إن لغتكم ستصير إلى اللاشيء

... أقول إن الحياة لا تتراجع إلى الوراء

أقول إن أخشاب النقش لا تزهر ولا تثمر"[3]

يبين جبران في هذا النص الذي أثبتنا جزءا منه تصوره حول اللغة التي يريد أن يجسدها في كتاباته، فهجر القوالب المحنطة التي لا زالت مستعملة عند بعض الشعراء المعاصرين كتشبيه الوجه الحسن بالشمس أو البدر، والعيون بعيون المها، ورشاقة الجسم بخفة الغزال، وما إلى ذلك من الصور البدائية التي لا تتماشى مع روح العصر، كما انعتق من لغة القواميس والمعجمات وصار يكتب بما هو

محفوظ في ذاكرته ومتداول في الألسنة بمفردات لا تتجاوز أربعمائة كلمة يبدع فيها، فينزع ويضيف بحسب ما تمليه عليه نفسه، ويجمل من دون تصنع، ويجدد بنفس شرقي مبتكر.

كان جبران منذ صغره مهووسا بانتقاء الكلمات التي تعبر عن الأشياء التي يريدها، فلم تكن الأساليب التعبيرية القديمة قادرة على ترجمة أفكاره وأحاسيسه ترجمة صحيحة، فعكف على صياغة طرق جديدة بألفاظ جديدة ذات إيقاع جديد وشكل جديد[4]، وفي موضع آخر يصرح لماري هاسكل أنه خلق في اللغة العربية "لغة جديدة داخل لغة قديمة كانت قد وصلت حدا بالغا من الكمال، لم أبتدع مفردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة"[5]، وفي (الأجنحة المتكسرة) يرى أنه كتبها بشكل جديد يشبه إلى حد كبير الشكل الذي استعمله كولريدج وويدزويرت في الأدب الانجليزي، إذ استعمل لغته الخاصة النابعة من ذاته لا لغة العامة أو الأساتذة.

يرى جبران أن الألفاظ هي ملك مشاع بين الناس، ولكن طريقة سبك هذه الألفاظ تختلف من شخص لآخر، وبمقدور المبدع أن يظهر تميزه وتفرده في هذا الجانب فيخلق من المفردات ما لم يستطع غيره من خلقه بجده وإصراره وعدم شعوره بالملل في التنقيح والتعديل، ويذكر في هذا السياق أن جبران كان إذا راودته خاطرة كتبها في أي شيء وجده، وعندما يعود إلى مكتبه يفتش عنها ليسكبها في قالب لغوي طريف، فيشطب كلمة ويضيف أخرى حتى تستقيم، وقيل أنه وضع لرسالة بعث بها إلى مي زيادة خمس مسودات، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على اهتمامه الكبير بوضع شكل يناسب فكرته، وكأني به جعل الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى صاحب الحوليات قدوة له في ذلك.

التزم جبران في كتاباته باللغة البسيطة الواضحة التي تغترف معناها من معجم الذاكرة، فكان يتخير الألفاظ –كما أسلفنا الذكر- ويصطفي منها أقربها إلى الفهم وأحلاها رنة في الأذن، ولم يكتف بذلك بل خلق ألفاظا جديدة ذات معان تعبيرية فائقة نابعة من وجدانه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يتردد في إخراج بعض الكلمات من حقلها المفهومي الشائع وإضفاء معان جديدة عليها مخالفة تماما للمعاني السابقة التي كانت تحملها، ومن ذلك نذكر على سبيل المثال لا الحصر: كلمة (الله) التي لم تعد في عرف جبران تعني الخوف والقوة والتعالي والعظمة والأمر والنهي والجبروت، بل هو محبة ودعوة، ويد تواسي المظلومين وتخفف عنهم وتعيد الحقوق إلى أصحابها، هو نور ينير ظلمة الحياة، ومفتاح يفتح أبواب الأسرار للعقول المتعطشة إلى المعرفة اليقينية، هو جمال يتجسد في الوجود، هو عطاء...

وكذلك كلمة (الدين) التي تدل منذ القدم على الطقوس والشعائر والممارسات التي يقوم بها الإنسان ليتقرب من خالقه، صارت عنده حرية، حاجة، كشف رباني، طريق، عاطفة راقية، حياة، كرم... أما كلمة (كاهن) فتغير مدلولها من إنسان يبين الطريق التي يجب أن يسير عليها المؤمن، ويمثل تعاليم الرب وينفذ أوامره، إلى شعور داخلي يسير بالنفس نحو الكمال فلم يعد ير كاهنا لأن الضمير أصبح الكاهن الأعظم[6]، أضف إلى ذلك كلمة (هيكل) التي نقصد بها المعبد أو الكنيسة أو المسجد أي المكان

الذي يجمع المتعبدين، صارت في معجمه إنسان طبيعي يتحرك ويمارس حياته بصفة عادية لكنه يسعى إلى الكمال والإتحاد بالذات الإلهية[7].

لم تتقيد ألفاظ جبران بالمعاني الموضوعة لها في المعاجم، بل راحت تكتسي معان جديدة من نص إلى آخر، الأمر الذي أعطاها قدرة كبيرة على التعايش والتكيف مع كل فكرة جديدة، فكلمة (شبح) على سبيل المثال لا الحصر لم تعد ذلك المنظر المرعب المخيف بل صارت رمزا للضمير الحي في مقال (حفار القبور): "ما سبيلي سوى سبيلك، فأنا سائر حيث تسير ورابض حيث تربض"[8]، وأوهاما في مقال (الجبابرة): "أما الأحلام المستحبة والأشباح الجميلة التي كانت تميس منتقلة على مسارح وجداننا فقد تبددت كالضباب"[9].

ولم يقتنع جبران بجعل اللفظة تكتسب معان جديدة إلى جانب معناها الأصلي، بل غير دلالات بعض الكلمات من السلب إلى الإيجاب أو من الإيجاب إلى السلب كما هو الحال في كلمة (الجنون) التي تعني انعدام الطاقة العقلية وفقدان التوازن، أصبحت عنده دعوة إلى التمرد، وطريق للكشف الرباني وإزالة الحجاب، وحرية وانعتاق من القوانين والتقاليد، ولفظة(كافر) التي تدل على الإلحاد والشرك صارت عنده إبداع وثورة وخلق وتمرد.

إن ما سقناه من أمثلة ليس إلا غيضا من فيض، فجبران اهتم بهذا الجانب كثيرا وجعل مهمته الأدبية تنحصر في منح المفردات الرائجة والمعروفة بين كل الناس روحا جديدة تبث فيها الحياة وتكيفها مع الأوضاع، وتحررها من قيود الزمان وتنفض عنها غبار العتاقة والقدم، ولما جنت طريقته ثمارها وأثبتت نجاعتها صارت غاية كل أديب ومطلب كل لغوي.

إن المتصفح لمؤلفات جبران التي بث فيها نوازعه الصوفية يجد أن معجمه اللفظي مستمد من حقلين أساسيين هما: الدين والطبيعة. فالكلمات المنتزعة من الحقل الديني طاغية على أدبه، إذ قلما نجد نصا خال من رمز ديني كالروح، النفس، رب، كاهن، إله، ناموس، جوهر، حب، جمال، محبة، عطاء، المحجوب، الكائن، الهياكل، البخور، الأغنية السماوية، الملأ الأعلى، الوجود، الجوع الروحي...، وفي قصة (رماد الأجيال والنار الخالدة) تتكرر كلمة الروح أربعين مرة في تراكيب متنوعة، وحتى مقال (الموسيقى) الذي يبدو متصلا بعالم الفن وبعيد كل البعد عن مجال الدين نعثر فيه على ألفاظ ذات رموز دينية كسحر، عجيب، جوهر، تراتيل، روح، صلاة، أناشيد، آلهة، سبّحوا، رسول، جوع، عطش، الله...

أما الألفاظ المأخوذة من الطبيعة فكثيرة جدا ويصعب حصرها إلى درجة أنه يمكننا القول: إن الطبيعة تجسدت في كتاباته بكل مظاهرها وفصولها، وتركت في أدبه بصمة خاصة جعلته متميزا ومتنوعا كتنوعها، ومن هذه الألفاظ نذكر مثلا: جبال، بحر، أنهار، ينابيع، سواقي، النجوم، المروج، السهول،

الأودية، المطر، تراب، رياح، عواصف، ثمر، رياحين، براعم الزهر، الظل، الورق، الشجر، البيادر، الكروم، الليل، الحقول، نهار،...

وحتى عناوين قصصه ومقالاته احتوت على رموز طبيعية كالأجنحة المتكسرة، العاصفة، بحيرة النار، صراخ القبور، بنات البحر، مناحة في الحقل، تحت الشمس، الحيوان الأبكم، أنشودة الزهرة، أيها الليل، الجنية الساحرة، بين ليل وصباح، في ظلام الليل، البنفسجة الطموح، نفسي مثقلة بأثمارها، حفنة من رمال الشاطئ، الأرض، أيتها الأرض، البحر الأعظم، أغنية الليل، البحر، الشحرور، ماذا تقول الساقية؟، الكلب الحكيم، الثعلب، الرمانة، النملات الثلاث، الليل والمجنون، وريقة عشب وورقة خريف، بنت الأسد، دوارة الريح، طائر إيماني، البحار الأخرى، النسر والقُبَّرَة، وميض البرق، اللؤلؤة، على الرمل، الضفادع، التراب الأحمر، البدر الكامل، الفأرة والهر، الرمانات، الحوت والفراشة، الظل، النهر.

عمل جبران على إظهار المضامين الجديدة في حلة جديدة فحافظ على أصل اللغة وغير في الأساليب ونوع في مداليل الكلمات بحسب ما يمليه عليه حسّه وذوقه الأدبي، ولم يخضع للأصول والقواعد التي تجعل الأدب مبتذلا متعنتا وجامدا، وهو ما جلب له نقدا لاذعا من أنصار المحافظة على التراث، فهاهو مصطفى صادق الرافعي يخاطبه بسخرية حارة قائلا: "فمتى كنت يا فتى صاحب اللغة، وواضعها، ومنزل أصولها، ومخرج فروعها، وضابط قواعدها، ومطلق شواذها؟ ومن سلّم لك بهذا حتى يسلم لك حق التصرف كما يتصرف المالك في ملكه، وحتى يكون لك من هذا بحق الإيجاد، ومن الإيجاد ما تسميه أنت مذهبك ولغتك؟ إنه لأهون عليك أن تولد ولادة جديدة فيكون لك عمر جديد تبتدئ فيه الأدب على حقه من قوة التحصيل، وتستأنف دراسة اللغة بما يجعلك فيها من أن تلد مذهبا جديدا أو تبدع لغة تسميها لغتك"[10].

إن هذا الكلام لهو دليل واضح على حجم التجديد الذي أحدثه جبران في اللغة مما جعل المحافظين يقفون في وجهه مستنفرين متتبعين كتاباته كلمة كلمة، يفندون بعضها وينتقدون بعضها الآخر بحجة عدم ورودها في المعاجم ككلمة (تحمم) التي وردت في قصيدة (المواكب) في قوله:

هل تحممت بعطر وتنشفت بنور[11]

وفي قصة يوحنا المجنون في قوله: "والزهور تتمايل كأنها تتحمم بأشعة الشمس"[12]، ولقيت هذه الكلمة هجوما عنيفا من نقاد الأدب فرد ميخائيل نعيمة في غرباله قائلا: "لما جاز لبدوي لا أعرفه وتعرفونه، يدخل على لغتكم كلمة (استحم) ولا يجوز لشاعر أعرفه وتعرفونه أن يجعلها (تحمم) وأنتم تفهمون مقصده، بل تفهمون (تحمم) قبل أن تفهموا (استحم) وما هي الشريعة السرمدية التي تربط ألسنتكم بلسان أعرابي عاش قبلكم بألوف السنين، ولا تربطها بلسان شاعر معاصر"[13].

ومن الكلمة الجبرانية ننتقل إلى العبارة الجبرانية التي اتسمت بالغرابة والمفاجأة مما جعلها نموذجا يحتذى به، إذ اتخذت قوالبا وأشكالا عديدة، فنراه تارة ينتزعها من الطبيعة كبياض الثلوج

وخضرة المروج، واصفرار البيادر، وزمجرة الأودية، وثرثرة الينابيع، فطغى عليها الجانب التصويري وكأنك حين تقرأها أو تسمعها تشاهد لوحة فنية من لوحات الطبيعة لا نصا أدبيا، وتارة يضفي على تراكيبه لمسات الكتاب المقدس، وحينها يعتمد المثل كما في المجنون والسابق والتائه، ويخاطب الناس بلهجة نبوية وكأن الله منحه سلطانا عليهم فيكثر من النداء والتعجب والاستفهام والندبة والتوكيد، ويجمع بين النقيضين كالوعظ والنداء إلى التقريع واللوم والتمرد والثورة إلى السكينة والسلام والهدوء، وبهذه المميزات تمكن من إقناع قارئيه برؤاه وأفكاره، فحُفرت تعابيره في القلوب ونقشت في العقول وكأنها كلام مقدس.

انطلاقا مما سبق يمكن القول إن لغة جبران لغة حية تفيض بالحيوية الروحية، انطلقت من الماضي وتفاعلت مع الحاضر وتطلعت إلى مستقبل زاهر دائم، وبذلك جاز لنا أن نقول عنه أنه "ذاك الفارس الذي ينتشل الكلمات من الغدير الذي غرقت فيه، لينسلها كلمة كلمة من نسيجها القديم، ويخيطها كلمة كلمة في نسيجها الجديد"[14].

2.الإيقاع:

تمتع جبران بأذن حساسة مرهفة تلتقط الأصوات وإيقاعات الكون، وتختزنها لتنسكب في أدبه انسكابا مميزا مملوءا بالتلوين والتنغيم، فهو منذ صغره أحب الموسيقى الكنائسية، وسيطر جو اللحن والجرس على وجدانه، لذا نظر إلى الإيقاع نظرة مختلفة متفردة، إذ هو ليس عنده سجع أو جناس أو بحر أو قافية أو روي بل تعبير عن تجربة وجدانية تنساب أنغامها "ألحانا ذات دلالة، وتصقل موهبته النغمية وتوقظ لديه التلوين الإيقاعي الذي يستخدمه، وتخلق فيه الإحساس بجرس الكلمة ونبر اللفظ، وتطبع أذنه بطابع الانتقاء والاختيار"[15]، ويشرح نظرته هذه إلى ماري هاسكل فيقول: "على الشعراء أن ينصتوا إلى إيقاع البحر، وهو الإيقاع الذي يتصف به سفر أيوب وسائر الأسفار الرائعة من كتاب العهد القديم. وإنك لتسمعين هذا الإيقاع في الطريقة المزدوجة لقول شيء ما. فهناك ما يقال ثم يقال لتوكيده ثانية بطريقة مختلفة قليلا وهذا يشابه أمواج البحر. فأنت تعرفين كيف تأتي الموجة الكبيرة ملتفة صاخبة وإذ تمتد تجوف حصى الشاطئ وسط هدير متكسر ثم يرجع بعض الحصى إلى مكانه، لكن بصخب أقل، ونوع من التيار الأصغر. ثم لا تلبث أن تقوم موجة ثانية أصغر من الأولى وتفعل فعلها –بصخب- ثم تلي ذلك فترة سكون. وعلى الأثر تقوم موجة كبيرة تهدر ملتفة من جديد وتليها شقيقتها أصغر منها –وهكذا دواليك- وحري أن يستوحي المرء هذه الموسيقى الطبيعية"[16] بدلا من البحث عنها في قواعد وقوانين تقيدها.

وكثيرا ما يظن الناس أن الإيقاع خاصية تتعلق بالشعر فقط مُجملينه في الوزن والقافية والروي، لكن الحقيقة غير ذلك "إذ الإيقاع في حقيقة أمره إيقاعات مختلفة حيث نلفيه يتسلط من

الوجهة الفلسفية الخالصة، على كل مظاهر الحياة بما فيها سيرة الكون القائمة على هذه الرتابة المتجددة حركتها كالليل والنهار، والصبح والمساء، وتعاقب الفصول، وتعاور النور والظلام، بل إننا نجد وظائف أعضاء الجسم تقوم أساسا على حركة إيقاعية"[17]، واللغة العربية إيقاعية بفطرتها لما تمتاز به من أصوات ذات نظام موسيقي يظهر في مختلف استخداماتها[18]، وقد تنبه جبران إلى هذه الخاصية ومن يقرأ نثره يجده غنيا بالإيقاع الناجم عن:

* **الجمل المتساوية والمتقاربة طولا**: كقوله:

الحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطر بدماء قتلاها

الحياة امرأة ترتدي الأيام البيضاء المبطنة بالليالي السوداء

الحياة امرأة عاهرة ولكنها جميلة ومن ير عهرها يكره جمالها[19]

هذه العبارات يتراوح عدد كلماتها بين ثمانية وعشرة، ففي العبارات الثلاث الأولى يثبت العدد ثمانية، ليزيد في الأخيرة بكلمتين ولكنها مجزأة ضمن إيقاعات صغيرة، إذ بدأها بثلاث كلمات (الحياة امرأة عاهرة) ثم استدركها بكلمتين (ولكنها جميلة)، ثم استخدم الشرط وجوابه (ومن ير عهرها يكره جمالها) وقوله أيضا: "أيها العدل الخفي الكامن وراء هذه الصور المخفية، أنت أنت السامع عويل نفسي المودعة ونداء قلبي المتهامل، منك وحدك أطلب وإليك أتضرع، فارحمني وارع بيمناك ولدي، وتسلم بيسراك روحي!"[20].

نلاحظ أنه بدأ مناجاته بثلاث كلمات ثم تصاعدت بإيقاع موسيقي مؤثر، لتنتهي بثلاث كلمات حين لم تستطع تغيير الواقع، وقوله:

يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين

يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة

يا ليل الشوق والصبابة والتذكار[21]

هنا يفتتح كلامه بالنداء ويكرره كأنه يناجي روحا تفهمه وتتفاعل معه، فيلتزم بعدد الكلمات الخمسة من السطر الأول إلى السطر الثالث.

* **الجمل المتشابهة من حيث التركيب**: مثال ذلك قوله:

فلم أستيقظ صباحا إلا ورأيتها متكئة على وسائد سريري

ولم أحاول عملا إلا ساعدتني على تحقيقه

ولم أجلس على مائدة إلا جلست قبالتي تحدثني وتبادلني الآراء والأفكار

وما جاء مساعد إلا اقتربت مني قائلة: قم بنا نسير بين التلول والمنحدرات[22]

تعمد جبران هنا استخدام أسلوب الحصر الذي افتتحه بأداة النفي والجزم (لم) في الجمل الثلاث الأولى، وغيرها في الرابعة ليدل على تغير في عواطفه وانتقاله إلى وضعية جديدة فأحدث اضطرابا في الإيقاع.

* **الجمل المتو افقة والمتقاربة من حيث المعنى**: نموذج ذلك قوله:

فإن أحببنا فحبنا ليس منا وليس لنا

وإن سررنا فسرورنا ليس فينا بل في الحياة نفسها

وإن تألمنا فالألم ليس بكلومنا بل بأحشاء الطبيعة بأسرها[23]

فهذه العبارات بالإضافة إلى تشابهها من حيث التركيب، فإنها تدل على معنى واحد هو أننا لسنا أحرار فيما نفعله ونحسه بل نحن خاضعين لمشيئة الله سبحانه وتعالى لأننا جزء من ملكوته.

* **الجمل المختلفة والمتضادة من حيث المعنى**: ومن أمثلة ذلك قوله:

لبنانكم كذب يحتجب وراء نقاب من الذكاء المستعار ورياء يختبئ في رداء من التقليد والتصنع، أما لبناني فحقيقة بسيطة عارية إذا نظرت في حوض ماء ما رأيت غير وجهها الهادئ وملامحها المنبسطة.

لبنانكم شيخ قابض على لحيته، قاطب ما بين عينيه ولا يفكر إلا في ذاته، أما لبناني ففتى ينتصب كالبرج، ويبتسم كالصباح، ويشعر بسواه شعوره بنفسه[24].

نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء المسرات

أنتم لا تعرفوننا أما نحن فنعرفكم

أنتم لا تعون صراخنا لأن ضجيج الأيام يملأ آذانكم، أما نحن فنسمع أغانيكم لأن همس الليالي فتح مسامعنا

نحن نراكم لأنكم واقفون في النور المظلم، أما أنتم فلا ترونا لأننا جالسون في الظلمة المنيرة[25].

في هذين النموذجين يجمع بين المتناقضين بتركيب نوعا ما متقارب، مما يساهم في خلق جرس موسيقي هادئ تأنس له الأذن وترتاح له النفس.

* **التكرار:** تعد ظاهرة التكرار الصوتي لبعض الكلمات والعبارات من الوسائل التي تثري الإيقاع الداخلي، واستعمل جبران هذه الخاصية في أدبه التي أكسبته قوة معان ونغمة موسيقية رائعة، وسنورد أمثلة عن تكرار الكلمات والجمل.

- الكلمات: من أمثلة ذلك قوله:

طوبى للرصينين بالروح

طوبى لمن لا تقيدهم مقتنياتهم لأنهم سيكونون أحرارا

طوبى للجياع للحق والجمال لأن مجاعتهم ستحمل لهم خبزا وعطشهم ماء عذبا

طوبى للرءوفين لأنهم سيعتزون بلطفهم ورأفتهم

طوبى لأنقياء القلب لأنهم سيكونون واحدا مع الله

طوبى للرحماء لأن الرحمة ستكون في نصيبهم

طوبى لصانعي السلام لأن أرواحهم ستقطن فوق المعركة وسيحولون حقل الخزاف إلى جنة غناء

طوبى للمطاردين لأن أقدامهم ستكون سريعة وسيكونون مجنحين"[26]

يلح جبران في هذا النص على تكرار كلمة (طوبى) ذات المدلول الديني العظيم، فأعادها في بداية كل عبارة تراود وعيه، لتكسب النص انسجاما وترابطا وتؤثر في القارئ دلاليا وصوتيا. وقوله:

وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات وأشكالها العبودية العمياء، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم وتجعلهم أجسادا جديدة لأرواح عتيقة وقبورا مكلسة لعظام بالية.

والعبودية الخرساء، وهي التي تعلق أيام الرجل بأذيال الزوجة التي يمقتها، وتلصق جسد المرأة بمضجع الزوج التي تكرهه.

والعبودية الصماء وهي التي تكره الأفراد على إتباع مشارب محيطهم...

والعبودية العرجاء وهي التي تضع رقاب الأشداء تحت سيطرة المحتالين...

والعبودية الشمطاء وهي التي تهبط بأرواح الأطفال من الفضاء المتسع على منازل الشقاء...

والعبودية الرقطاء وهي التي تبتاع الأشياء بغير أثمانها...

والعبودية العرجاء وهي التي تحرك بالخوف ألسنة الضعفاء...

والعبودية الحدباء وهي التي تقود قوما بشرائع قوم آخرين

والعبودية الجرباء وهي التي تتوج أبناء الملوك ملوكا

والعبودية السوداء وهي التي تسم بالعار أبناء المجرمين الأبرياء

والعبودية للعبودية نفسها هي قوة الاستمرار[27]

العبودية سلوك مرفوض منذ القدم بمختلف أنواعه، وترديدها تأكيد على ذلك وترسيخ لها في ذهن القارئ بإيقاع هادئ مخدر أشبه بإيقاع أسفار كتاب العهد القديم.

- الجمل: كقوله:

أنا غريب في هذا العالم

أنا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة

أنا غريب عن أهلي وخلاني، فإذا ما لقيت واحدا منهم أقول في ذاتي: من هذا؟

أنا غريب عن نفسي، فإذا ما سمعت لساني متكلما تستغرب أذني صوتي...

أنا غريب عن جسدي، ولما وقفت أمام المرآة أرى في وجهي ما لا تشعر به نفسي...[28]

إن تكرار عبارة (أنا غريب) وتصديرها بالضمير (أنا) يوحي بنغمة صوتية رخيمة، وصوت شجي بليغ الوضوح، هذا بالإضافة إلى كلمة غريب التي جاءت على وزن فعيل، وما ينطوي عليه هذا الأخير من جرس رقيق مستحب. وقوله:

أنت حر أمام شمس النهار

وأنت حر أمام قمر الليل وكواكبه

وأنت حر حيث لا شمس ولا قمر ولا كواكب

بل أنت حر عندما تغمض عينيك عن الكيان كله[29]

ولا يقتصر الإيقاع عند جبران على النثر فقط بل وجدناه في الشعر أيضا لكن بأسلوب جديد، إذ لم يلتزم بالوزن الواحد والقافية الواحدة والروي الواحد، وإنما نوع فيها وكانت الأوزان عنده تتغير بتغير الموضوع الذي يعبر عنه، وتجلى ذلك واضحا في قصيدة المواكب التي نظمها على بحرين: الأول البسيط الذي يستوعب كلاما كثيرا خص به الشيخ، والثاني مجزوء الرمل الذي يحتمل معان قليلة جعله للشاب، ليعبر عن اتجاهين مختلفين للحياة، كما نوع في حروف الرويّ (الراء، العين، اللام، الميم، النون، الباء، الحاء، التاء، الفاء، السين، الهمزة، الدال، الكاف، ونوع في حركاتها من الضمة إلى السكون).

وعلى نفس المنوال نظم قصيدته (أغنية الليل) لكن ليس على بحرين بل ببحر واحد هو الرمل، لكنه جعل الشطر الأول كامل التفعيلات بينما الشطر الثاني أتى به مجزوءا مع تمام المعنى، فيقول:

تسكن الليل وفي ثوب السكون تختبئ الأحلام

وسعى البدر وللبدر عيون ترصد الأيام

فتعالي يا ابنة الحقل نزور كرمة العشاق

علنا نطفي بذياك العصير حرقة الأشواق[30]

خاتمة:

كثيرا ما يصعب على الباحثين وضع خواتيم لبحوثهم، لاعتقادهم أنه لا نهاية للسؤال، وكل جواب مهما بدا مقنعا وصائبا يتحول مرة ثانية إلى سؤال أصعب وأعقد، فما من جواب يريح الباحث ويطمئنه، وهو شعور راودنا وجعلنا نعزف عن وضع حد لهده المقالة، ولكننا لا نحيد عن منهجية البحوث التي تفرض علينا كتابة نتائج البحث، لذلك فإننا سنعرض أهمها على شكل نقاط هي:

- رأى جبران أن اللغة بقواعدها ليست قادرة على احتواء المعرفة الحدسية التي في قلبه ونقلها نقلا واضحا إلى العالم، فجدد في ألفاظها وتراكيبها وإيقاعها ، وأوجد بذلك لنفسه أسلوبا جديدا يطفح بالروحانية والعاطفة، ينبع من عمق تجاربه الوجدانية، يحس القارئ بصدقه ويتفاعل معه حتى يصير جزءا مما يقرأه وعنصرا فاعلا فيه، أُطلق على طريقته هذه أسلوب جبران أو المدرسة الأدبية الجبرانية الجديدة.

- ينبع أسلوب جبران الجديد من قلب المؤلف ويتجه إلى قلب القارئ، وصارت الكتابة عنده وسيلة حوار بين قلبين أو مشاركة وجدانية يطغى عليها الاعتراف وتعرية الذات، فلم يعتمد على كل ما هو مقنن بل جعل فطرته وعفويته ومحبته الحقة موجهه ومرشده في مخاطبة العقول والقلوب،

- ورغم كثرة الدراسات حول أدب جبران و خصائصه إلا أنه ما زال محتفظا بأسراره ،ومعينه لم ينضب بعد، والدليل على ذلك إقرار كثير من البحوث بعجزها عن الوصول إلى ما كان يود جبران قوله عبر لغته الإيحائية ودرره العلاماتية.

الهوامش:

[1]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، تقديم ومراجعة وترتيب ميخائيل نعيمة، دار صادر، بيروت، ط1، 2002 ،ص325.

[2]- المصدر نفسه، ص ص328-329.

[3]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران نصوص خارج المجموعة، جمع وتقديم أنطوان القوال، دار الجيل، بيروت، ط1، 1994،ص ص93-96.

[4]- سمير السالمي، شعرية جبران المستمر بين الشعري والفني، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1،2011، ص84.

[5]- المصدر نفسه، ص85.

[6]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص168.

[7]- ينظر: مها خير بك ناصر، جبران أصالة وحداثة، لمؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، د ط، 2002،ص ص 208-209.

[8]- جبران خليل جبران، العواصف، المكتبة العالمية الجديدة، بيروت، لبنان، د ط، د ت ،ص07.

[9]- المصدر نفسه، ص92.

[10]- مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د ط، 1963، ص13.

[11]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص210.

[12]- المصدر نفسه، ص44.

[13]- ميخائيل نعيمة، الغربال، دار العلم للملايين، بيروت، د ط، 1971، ص ص411-412.

[14]- وهيب كيروز، عالم جبران الفكري، دار بشاريا، بيروت، د ط، 1984، المجلد الأول ،ص ص143-144.

[15]- عباس عجلان، عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، د ط، 1985، ص64.

[16]- جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، مؤسسة نوفل، بيروت، ط1، 1983،ص136.

[17]- عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور، دار هومة، الجزائر، د ط، 2005، ص200.

[18]- عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري- دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية-، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 137.

[19]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص228.

[20]- المصدر نفسه، ص43.

[21]- المصدر نفسه، ص224.

[22]- المصدر نفسه، ص296.

[23]- المصدر نفسه، ص301.

[24]- المصدر نفسه، ص306.

[25]- المصدر نفسه، ص230.

[26]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، تعريب الأرشمندريت أنطونيوس بشير، دار صادر، بيروت، 1964.ص231.

[27]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص219.

[28]- المصدر نفسه، ص255.

[29]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، ص169.

[30]- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، ص358.

المراجع:

1) جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته العربية، تقديم ومراجعة وترتيب ميخائيل نعيمة، دار صادر، بيروت، ط1، 2002 .
2) جبران خليل جبران، العواصف، المكتبة العالمية الجديدة، بيروت، لبنان، د ط، د ت.
3) جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته المعربة عن الانجليزية، تعريب الأرشمندريت أنطونيوس بشير، دار صادر، بيروت، 1964.جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران نصوص خارج المجموعة، جمع وتقديم أنطوان القوال، دار الجيل، بيروت، ط1، 1994.
4) جميل جبر، جبران في عصره وآثاره الأدبية والفنية، مؤسسة نوفل، بيروت، ط1، 1983.
5) سمير السالمي، شعرية جبران المستمر بين الشعري والفني، دار توبقال للنشر، المغرب، ط،2011.
6) عباس عجلان، عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، د ط، 1985.
7) عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور، دار هومة، الجزائر، د ط، 2005،.
8) عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري- دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمانية-، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991.
9) مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د ط، 1963.
10) مها خير بك ناصر، جبران أصالة وحداثة، لمؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، د ط، 2002.
11) ميخائيل نعيمة، الغربال، دار العلم للملايين، بيروت، د ط، 1971.
12) وهيب كيروز، عالم جبران الفكري، دار بشاريا، بيروت، د ط، 1984، المجلد الأول.